الأستاذة وصال حسن

"سكيزوفرينيا" جميلة!

رغم أنها قد تجاوزت الخمسين، وخطّ الدهر في وجهها رسوماً.. وما أكلته في حياتها قد أكل بعض أسنانها، وما لبسته منذ عشرة أعوام يلتبس علينا أنه جلدها..
إنها جميلة!

لجميلة أحفاد يفضحون حقيقة سنّها الذي لا تبوح به.. ولكنها جميلة.
إيّاك أن تكلمها صباحاً.. صحيح أنها بحاجة إلى بعض اللوازم المنزلية، وعليها أن تخبر زوجها بذلك؛ ولكن لجميلة طريقتها الخاصة في الحصول على ما تريد..

تستيقظ قبل كل الكائنات، فتبدأ بالسّعال.. تستيقظ وباعتقادها على الكل أن يستيقظ الآن.. تحضّر قهوتين، واحدة لها وأخرى لزوجها، هو يعرف جيداً كل المحظورات.. فعليه أن لا يمسّ أشياءها وخاصة في الصباح.
كيف تخبره؟

هو يعرف أنها تحتاج إلى ثلاثة علب من الدخان، وعليه أن يحضرها معه كل مساء، أما الأمور الأخرى، كالطعام.. فهو يحدده لكل يوم، جلّ ما تفعله أن تضع على طاولة المطبخ شيئاً يرمز إلى ما تريد، فتضع وعاء الفاكهة، أو علبة القهوة الفارغة، أو شريحة دواء.. ورغم هذا فهي جميلة.
وكالصاعقة
كالإعصار

ككل الخوارق اجتمعت في جميلة

أجّجت صدرها

ودجّجته بالكلام

هبّت من فراشها!

فتحت بابها المؤدي إلى الشارع العام..

نظرت إلى أعلى..

نظرت إلى السماء تخاطب ربها!

وليس كما خاطبه أحد من الأنبياء

كانت ترتجف

وكما ارتجف الجبل آنذاك

وبصوت عالٍ، وعلى مسمع من الجيران:

- ربي!

... أما زلتُ في فراش المخاض؟!

... وهؤلاء الأطفال؛ أليسوا صغاراً بعد؟!

... مَن سيجلب الماء إذن؟

... زوجي المريض؟

... أم ذاك الطفل الرضيع؟

أمسكت بأنابيب المياه تهزّها.. وتطبق أسنانها.. وتنظر شزراً إلى السماء تهدّدها:

- أريد ماءً!

... وأريده الآن!

تركت الأنابيب من يديها.. دخلت بيتها، ولا زالت نظراتها معلّقة بالسماء، وكأنها تحذّرها من أي كلام!

دخلت موقنة بأنها ستُجاب

والعزيز الجبّار، لم يخيّب أمل جميلة!

لقد امتلأ خزانها الصغير
وامتلأ وحده عنوة عن بقية الجيران!
هي ليست معتوهة، ولا تكذب، لكن المؤكد أن الله أراد أن لا يخيّب أمل جميلة تلك، فهي لا تؤمن إلا بقضائه...

***

علاقة جميلة بربها أيضاً جميلة، تشعر به في كل لحظاتها، يراقبها، تحدثه، تخاف منه، وتسأله فيجيبها.. جميلة لها عبادات أخرى غير الصلاة والصوم، وأيضاً جميلة..
أخرج أيها الصرصار! إذهب إلى بيتك قبل أن يراك أحد فيقتلك!
تباً لهؤلاء الناس كيف يقتلون مخلوقات ربهم، أَوَيخلق الله شيئاً ضاراً؟ إنهم أغبياء! تدفعه برفق بمكنستها، تحثه على الذهاب..
ويا لها من جميلة..
جلست وسط جيرانها في الحديقة تشكو لهم فشلها في زراعة البقدونس، فالنمل يسرقها دائماً.. وكالبركان انفجرت عليهم حين أخبرتها إحداهن بأن تضع للنمل سماً حول المسكبة.. صرخت..

– أيتها الكافرة! يا ظالمة! أنت بلا رحمة وسيعاقبك الله على كلامك هذا..

وَجِلَتْ النسوة من رد فعلها.. ولم يستوعبن ما رمت إليه جميلة..
قالت: أيتها الجاهلة.. هل تعرفين بأن النمل قد كلم نبي الله سليمان؟ وهل تعرفين بأنه يجمع الحبوب ليطعم صغاره؟ أويملك النمل مالاً ليشتري به الطعام؟ من أين سيأتي به إذا لم يأخذه من مسكبتي؟ هل تريدين مني أن أقتل نفساً قد حرم الله قتلها؟ ما صومك ما صلاتك؟ هيا أخرجن من حديقتي يا فاسدات..
جلست واجمة تحت زيتونتها الوارفة، تفكر في قسوة قلوب هؤلاء.. هبت من مكانها فجأة والفرحة تغمرها كأنما وجدت كنزاً ثميناً، دخلت مطبخها الصغير وأخرجت كيساً.. وبعد لحظات كانت مسكبتها محاطة بالنمل الذي يجرّ حبوب البرغل الذي وضعته جميلة طعماً للنمل ليترك لها البقدونس..

***

إنه يوم ماطر وعاصف، والبرد قارس وشديد، لا يستطيع أحد الخروج من منزله إلا لضرورة ملحّة. جميلة في منزلها تجاهد بأعمالها اليومية التي لا تنتهي، والتلفزيون يعرض على محطاته برنامجاً تلو الآخر.. هي لا تملك الوقت ولا الرغبة في المشاهدة إلا أن ما تناهى إلى سمعها شدّها إلى متابعة ما يقال.. أطفال تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثالثة عشر، إنهم يشبهون إبنها عليّ، يشبهونه تماماً بنشاطهم المفرط وحركاتهم الزائدة، أطفال يستغّلون كل ثانية من وقتهم في الحركة المستمرّة، والشاشة الصغيرة تعرض مشاغباتهم ومشاكساتهم المزعجة التي لا تطاق..

تحدّق جميلة، وتشدّها الصورة.. ترمي المكنسة أرضاً.. تركّز على شفتي الطبيب المستضاف، وتصغي إليه بانتباه.. تقول المذيعة:

- كيف تصنّف هؤلاء الأطفال؟
- هم أطفال عندهم حركة زائدة.
- هل يمكن أن نطلق عليهم صفة "مرضى"
- بالطبع لا!
- ولكن هناك مشكلة في هؤلاء كيف نعالجها؟
- هؤلاء الأطفال لديهم "حركة زائدة" نتيجة للظروف المحيطة بهم منذ ولادتهم، العائلة، البيئة، ثم المدرسة فالمجتمع.. وعلى الجميع أن يتفهّمهم ويمتص طاقاتهم من خلال توظيفها في شيء مفيد، وتحفيزهم على إخراج ما بداخلهم، يجب مساعدتهم..
- تضحك... لقد فهمت مشكلة إبنها علي! إنه ليس مريضاً، هو مميز عن بقية الأطفال بحركته المفرطة..

راحت تخاطب نفسها بصوت خافت، لديه طاقة! لا بل لديه طاقات! وتضحك ضحكة العالِم المُكتشف..

تجلس على الكرسي تنظر إلى عليّ المنهمك بإحداث فوضى في المنزل المتعب من احتواء حركاته، حيث تصدّعت حيطانه، وتخلعت أبوابه، فبدا ككهلٍ متدلي اللسان متهدل اليدين من كثرة التعب..

وجميلة تنظر إلى عليّها بفرح شديد وتداعبه بعينيها من بعيد: "يا لجمالك، يا لبراءتك، ما أحلاك يا علي، طفلي الصغير.. كيف ينزعجون منك وقد بشرني بك نبيّ الله الخضر من قبل أن تولد؟ هم لا يفهمون.. وتطلق ضحكة صغيرة تبدو كأنها تشحن بها طاقتها لتستمر في العمل، وتفكر في المحاضرة التي ستلقيها على أول مَن سيتذمّر من حركات وصَبْيَنَات علي..

يوم خطوبة سماح

تتوافد المعازيم إلى حديقة البيت الصغير، وسماح تجلس بخجل على كرسيها المرتفع، تنتظر عريسها، وحياتها الجديدة، تنتظر بجهل وبراءة، وأيضاً بفرح وغرابة.. عريسها مختلف، ولديه ما تريد، هي تعاني من فصام، وهذا جل ما يريد.. نرجسي مهووس يؤمن بالعبقرية.. وبرسالة سماوية موكلة إليه.. وبأنه إن لم يستطع تقويم فقرات ظهره فسيستطيع تقويم أفراد المجتمع..

توالت الضيوف واكتظ المكان، وإذا بأم العروس تخرج مسرعة من بين الحشود، فتصطدم بالعريس وأهله، تقول لهم بإيجاز: "لا تلبسوها خاتم الخطوبة إلى حين عودتي"..

تتمتم في سرها يا ليتني أملك أكثر من هاتين العينين، فأعلق في كل شجرة عين، وعلى كل مبنى عين، وأرفق مع كل طير عين.. لأراقب علي.. يا علي أين أنت يا ماما؟ تعال سنوزع الحلوى..

بناء بيت جديد

صوت زقزقة العصافير يملأ المكان، يهدهد قيلولتنا ويطربنا، إلا أن صوت رفش يحف بأرض صلبة، ويجرح السمفونية الأزلية الحرة؛ يخدش آذاننا. أطل من نافذة غرفتي على حديقة جميلة، منتهكةً بذلك حرمة تحرّرها..

فأرى إنساناً معصب الرأس بكوفية، أرخيت أطرافها عن الجانبين، وشدت من مقدم الرأس إلى الخلف بإحكام، وحذاءً جلدياً يحاذي الركبتين، وسيجارة متهدلة على طرف الفم، والأنوثة كلها اجتمعت حول كومة من الرمل تغريها بالصعود إلى القمة، تلملمها بمحبة وقوة.. إنها جميلة!

ويا لدهشتي أمام روعتها الفريدة.. تتقن الأمومة جيداً، فالأمومة بناء بيت لإبنها، والأمومة نقل المواد إلى السطح، والأمومة جر المياه، والأمومة إشعال موقد وإطعام عائلة، وآخر الليل لا تخلُ الأمومة من إغواء..

جبارة هذه المرأة بإرادتها، وتصميمها وعزمها.. عملاقة بمبادئها وبدقة تطبيقها.. نأت عن الثرثرة غير المجدية، تنزهت عن النظر إلى علل غيرها، وخطايا النساء الليلية المتسترة بغطاء الدين تارة، وبالتمكين تارة أخرى.. تعاقب عينيها بإرخاء جفونها بشدة، وأذنيها بالتثاؤب كلبوة خرجت من العرين لتوها، تفتح فمها للتتثاءب وتنبه المتخفّين فتقول: آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه ويدوي صوتها، وترقص طنطلتها، وتظهر أسنانها كقضبان حكمت على لسانها بالسجن المؤبد.. يُذهَل مَن لا يعرف جميلة وطريقتها بالتثاؤب..

دائمة التثاؤب هذه شيدت منازل لأبنائها الثلاثة، ومن بينهم علي، شيدتها في الوقت الذي هُدِمَت فيه منازل كثيرة بسبب عدم إتقان أهلها لفن التثاؤب..

يوم في العيادة

ظلت سماح واقفة تحت المطر في الحديقة لأيام، تحمل معولاً تحذر به كل مَن يقترب منها، لا تدخل البيت إلا لقضاء حاجة أو المبيت ساعات قليلة من الليل.. وصراخ بين الفينة والفينة.. لم يستطع أحد من الجيران مساعدتها.. وثرثارات الحي رمين شتى الإتهامات العشوائية نحوها حيناً ونحو والديها حيناً آخر.. ولم تخلُ تلك التهيؤات من خيال وافتراء..

حيرة جميلة وشكواها التي نقلتها لزهور الحقل، طالبة منها أن تبلغها للسماء عبر نحلة، عبر فراشة، عبر طير وغيمة؛ أدمت قلبي.. فقررت أن أخبر الطبيب عله يساعدها.. وهكذا كان.. جاء الطبيب وفق موعد حددته أنا مع جميلة، متخفياً بشخصية ناشط إجتماعي لمساعدة الفقراء..

وثقت به سماح من أول نظرة، لا بل أحبته.. وتناولت منه حبة دواء أدخلت النعاس إلى عينيها، والهدوء إلى حي بأكمله.

ما أعظم حبوب الدواء في تأثيرها العجيب على إنسان متمرد!..

وطلب منها أن تزوره في عيادته بعد أن أخبرها بذكائه الفذ أنه بالإضافة إلى عمله هذا هو طبيب لامع في المنطقة.
إصطحبت جميلة وسماح إلى العيادة.. دخلت جميلة أولاً، تلتها سماح.. وإذا بالطبيب يخرج مصفرّ الوجه، ينظر إليَّ نظرة حيرانٍ مشفقٍ.. كان قد حدد العلاج..
وفي غرفة داخلية أخبرني بأننا سنعالج المريضتان، وكل واحدة منهن ستضع الدواء للأخرى في طعامها أو الشراب، وهذا ما كان..

جميلة.. يا زهرة الحقول التي أبت إلا أن تنثر عطرها على كل الدروب.. فتمددت وتكاثرت.. نباتاً على هيئة إنسان..

يتبع إنها تكلّم القطط..